عائشة بنت طلحة

أهم قصيدة رُويت لعمر بن أبى ربيعة هى رائيته التى فضّله بها القدماء على جميل ، ومن الواضح ان أولى معشوقاته بالفضل عليه هى تلك الجميله التى أوحت اليه بتلك القصيدة ، وما كانت تلك الحسناء فيما ظن الا عائشة بنت طلحة التى اجمع أهل عصرها على تفردها بروعة الجمال . يدلُّ على ذلك ماأشرنا اليه فيما سلف من انها سهرت ليلة لهمّ لم بها فقالت : إن ابن أبى ربيعة لجاهل بليلتى هذه حيث يقول :

أعجبها من عيشها ظل غرفة وريّان ملتف الحدائق أخضر
وال كفاها كل شىء يهمها فليست لشىء آخر الليل تسهر

ولو لم يعنها بهذه الاشارة لما رجّعتها حين قهرها الحزن فى هدأة الليل . فلنقف قليلا عند ذكرى هـذه الفاتنة التى أثارت قلبه ، أضرمت إحساسه ، ففتحت له باب الخلود [1]

* * *

(١) يستبعد أستاذنا الدكتور طه حسين أن يكون عمر قال هذه القصيدة عائشة . ويرى أن استئناسها بشعره لا يزيد عن أنه تمثل . وحوادث القصيدة

وإنه ليكفى أن نتحدث عن جمالها . وأخلاقها ، وعقلها . وجاهها ، وأخبارها مع الحارث بن خالد المخزومى . وحوادثها مع شاعرنا المحظوظ

جمالها

أما جمالها فقد كان فتنة لكل من سمع بها أو رآها من أهل ذلك الزمان . وانهم ليذكرون انها صارمت زوجها وخرجت من دارها غضبى فمرت فى المسجد وعليها ملحفة تريد عائشة ام المؤمنين فرآها أبو هريرة فقال : سبحان الله ، كأنها من الحور العين ! ورُوِى أنها نازعت زوجها إليه فوقع خمارها عن وجهها فقال : سبحان الله ! ما أحسن ماغذاك اهلك ، كأنما خرجت من الجنة ! وقال لها يوما : مارأيت شيئا أحسن منك الا معاوية اول يوم خطب على منبر رسول الله . فقالت : والله لأنا أحسن من النار فى الليلة القرة فى عين المقرور ! وقد حدثت احدى الوصائف انها زارتها فرأت عجيزتها من خلفها وهى جالسة كأنها غيرها . قالت : فوضعت إصبعى عليها لأعلم ماهى . فلما وجدت مسّ أصبعي

تبعد أيضا أن يكون قالها في عائشة . فسيرى القارىء انها كانت عفيفة مصونة . غير أنه لاينبغى أن ننسى أنه لم يلتزم تصوير الواقع في شعره فلا يبعد أن تكون هذه القصيدة من وحيها وان لم يكن لها من حوادثها نصيب . وسنعود الى الكلام عمن قيلت فيها هذه القصيدة بعد فصول

قالت : ما هذا ؟ قلت : جعلت فِداءك لم أدر ما هو فجئت لأنظر ! فضحكت وقالت : ما أكثر من يَعجب مما عجبتِ منه !

قال سالم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بمنى أو مسجد الخيف فسألتنى من أنت ؟ قلت : سالم بن قتيبة . قالت رحم الله مصعباً . ثم ذهبت تقوم ومعها امرأتان تَنْهضانها فأعجزتها أليتاها من عظمهما فقالت إنِّى بكما لَمُعنّاة ! فذكرت قول الحارث :

وتَنُو تُثقلها عجيزتها نهضَ الضعيف ينوء بالوسْق (١)

وروى صاحب الأغانى أنه كان بالمدينة امرأة حسناء ، تسمَّى عزة الميلاء ، يألفها الاشراف وغيرهم من أهل المروآت ، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء . فأتاها مصعب بن الزبير وعبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر وسعيد بن العاص فقالوا : إنا خطبنا فانظرى لنا . فقالت لمصعب : يا ابن أبى عبد الله ، ومن خطبت ؟ فقال : عائشة بنت طلحة . فقالت : وأين أنت يا ابن أبى أحيحة ؟ قال : عائشة بنت عثمان . قالت : فأنت يا ابن الصِّدِّيق ؟ قال : ام القاسم بنت زكريا ابن طلحة . قالت : يا جارية ! هائى منقلىّ لعنى خُفيها فلبستهما

(١) الوسق : الحمل

وخرجت ومعها خادم لها ، فاذا هى بجماعة يزحم بعضهم بعضا . فقالت يا جارية انظرى ما هذا ، فنظرت ثم رجعت . فقالت امرأة أخذت مع رجل ، فقالت داء قديم ! امضى ويلك ! فبدأت بعائشة بنت طلحة فقالت : فديتك ، كنا فى مأدُبة أو مأتم لقريش فتذاكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك فديتك ، فألقى ثيابك ، ففعلتْ . فأقبلتْ ، وأدبرتْ ، فارتجّ كل شىء منها ، فقالت لها عزة : خذى ثوبك فديتك ! فقالت عائشة قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتى قالت عزة : وما هى بنفسى أنت ؟ قالت : تغنينى صوتا ، فاندفعت تغنى لحنها فى شعر جميل

خليلىّ عُوجا بالمحلة من جُمْلِ ... وأترابها بين الأُصيفر والخبلِ
نقفْ بمغانٍ قد محا رسمها البِلى ... تُعاقبُها الأيام بالريح والوبْلِ (١)
فلو درج النمل الصِّغار بجلدها ... لأَندب أعلى جلدها مدرج النمل (٢)
وأحسن خلق الله جيداً ومقلةً ... تُشبّه في النسوان بالشادِن الطفل

فقامت عائشة فقبلت ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك ، فدفعته إلى مولاتها فحملته ، وأتت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهن حتى أتت القوم فى السقيفة

(١) تعاقبها الايام : تختلف عليها (٢) أندبه : أثر فيه

فقالوا : ماصنعت ؟ فقالت يا ابن أبى عبد الله ، أما عائشة فلا والله إن رأيت مثلها مقبلةً ومُدبرة ، محطوطة المتنين [١] ، عظيمة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ممتلئة العضد ، خميصة البطن ، ذات عُكَن [٢] ، ضخمة السُّرة ، مَسْرُولَة الساق [٣] ، يرتج مابين أعلاها إلى قدميها ، وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف : عظم القدم والأُذن . وكانت عائشة كذلك — ثم قالت عزة : وأما أنت يا ابن أبى أحيحة فانى والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط ، ليس فيها عيب ، والله لكأنما أُفرغت افراغا [٤] ، ولكن فى الوجه ردة ، وان استشرتنى أشرت عليك بوجه تستأنس به ، وما أنت يا ابن الصِّدِّيق فوالله ما رأيت مثل أم القاسم ، كأنها خوط بانة ، تتثنى وكأنها جَدْل غنان ، أوكأنها خَشف يتثنّى على رمل . لوشئت أن تعقد أطرافها لفعلت . ولكنها شختة الصدر [٥] وأنت عريض الصدر ، فاذا كان

(١) محطوطة المتنين : تريدأنها ناعمة ملساء (٢) جمع عكنة بالضم وهى ماانطوى وتثنى في لحم البطن (٣) مسرولة : بيضاء ، ويقولون فرس مسرول اذا جاوز بياض تحجيله العضدين والفخذين (٤) أفرغت افراغا : صبت صباً
(٥) الشخت : الدقيق

ذلك كان قبيحا . لا والله حتى يملأ كل شيء مثله !

وقد آثرنا إثبات هذا الحديث لنُرِيَ القارئ صورة من تلك الحياة اللّينة التى كان يحياها شباب الحجاز ، ولنريه كيف كانت عائشة بنت طلحة فى أعين الخبيرات من النساء . فان المرأة أعرف بالمرأة ، وأبصر من الرجل بسرائر الحسن المكنون

وعلى ذكر مصعب وعزة نقول إن عائشة دعت يوما نسوة من قريش ، فلما جئنها أجلستهن فى مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب المجمَّر وخامت على كل منهن خلعة تامة من الوشى والخز ونحوهما ، ودعت عزة الميلاء ففعلت بها مثل ذلك وأصنعفت ، ثم قالت لعزة : هاتى ياعزة فغنينا . فغنتهن فى شعر امرئ القيس :

وثغرٌ أغرُّ شنيب النبات لذيذ المقبَّل والمبتسَم[1]

وما ذقته غير ظنٍّ به وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه اخوان له ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مُسبَلَة ، فصاح : ياهذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت ، فبارك الله فيك ياعزة ! ثم أرسل إلى عائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا

(١) شنيب : فيه شنب بالتحريك وهو الرقة والبرد والصفاء

الصوت ، ثم تعود اليك ، ففعلت وخرجت عزة إليه فغنته هـذا الصوت مراراً ، وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحاً ، ثم قال لها : ياعزة ! إنك لتحسنين القول والوصف ! (١)

وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب فى ذلك . فقالت : ان الله تبارك وتعالى وسَمَنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله مافىَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد

وكانت بجمالها باغيةً ظالمة ، تكْلَف بالكيد لأترابها من شهيرات النساء . فقد ذكروا أن رملة بنت عبد الله قالت لمولاة لعائشة بنت طلحة : أريني عائشة متجردة ولك ألفا درهم . فأخبرت عائشة بذلك . قالت : فانى أتجرد فأعلميها ولا تعرّفيها انى أعلم ، فقامت

(١) كانت عزة من أجمل النساء وجها وأحسنهن جسما ؛ وسميت الميلاء لتمايل في مشيتها ، وقيل بل كانت تلبس الملاءة وتشبه بالرجال فسميت بذلك ، كما كانت تفعل في عصرنا أم كلثوم حرسها الله ؛ وقيل : بل كانت مغرمة بالشراب ؛ وكانت تقول : خذ ملئاً واردد فارغا . قال أبو الفرج : والصحيح أنها سميت الميلاء لميلها في مشيتها. وقد غنت يوما عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب ! فقال إني سمعت والله مالم أملك معه نفسي ولا عقلي

عائشة كأنها تغتسل ، وأعلمتها ، فأشرفت عليها مُقْبلةً ومُدْبرة ، فأعطت رملة لمولاتها ألفى درهم . وقالت لوددت أنى أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها ! ! قال صاحب الأغانى : وكانت رملة قد أسنّت ، وكانت حسنة الجسم ، قبيحة الوجه ، عظيمة الأنف ، وفيها وفى عائشة يقول الشاعر :

أَنْعم بعائش عيشاً غير ذى رَنَق وانبذ برملةَ نبذَ الجورب الخلق

وكانت عائشة بنت طلحة تنافس بالحُسن سُكينة بنت الحسين . قالت لها يوماً سكينة : أنا أجمل منك . قالت عائشة : بل أنا ! فاختصمتا إلى عمر بن أبى ربيعة . فقال : لأقْضينّ بينكما ، أما أنت ياسكينة فأملح منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل منها . فقالت سكينة : قضيت لى والله ! ومن هنا نعرف أنهم كانوا يؤثرون الملاحة على الجمال

* * *

أخلاقها

وأما أخلاقها فكان أظهرها العفة ، والشراسة ، واللؤم ، وحدّة الشهوة

كانت عفيفة فلم يستطع أحد من طُغاة الفتيان والأُمراء أن يطمع

منها فى كثير من الإثم أو قليل . ولم يجد أترابها مغمزاً ينلنها منه حين يجدُّ الشَّغَب ويطول اللّجاج ، وكانت فى عفتها وصيانتها خَنِثَة غَنِجَة تُوَاتى الزوج بأطيب ما تستطيع المرأة العَرُوب من غرائب الدلال تموت وتحيا بالضجيع وتلتوى بمضطرب المتنين منبتر الخصر

وهي التى تقول وقد لامتها إحدى صواحباتها حين سمعتها تتقتّل تحت عمر بن عبيد الله : إنّا نتشهّ لهذه الفحول بكل ما حرّكها وكل ماقدرنا عليه !

وكانت شرسة لا يقدر عليها الزوج إلاّ بالتّلاحى والضرب ، ولها فى هذا الباب أخبار تُروي للتفكه والمزاح . فمن ذلك أنها قالت لمصعب أنت علىّ كظهر أمى ، وقعدت في غرفة وهيأت فيها مايصلحها ، فجهد مصعب أن تكلمه فأبت . فبعث إليها ابن قيس الرقيات فسألها كلامه . فقالت : كيف بيمتى ؟ فقال هاهنا الشعبى فقيه أهل العراق ، فاستفتيه فدخل عليها فأخبرته ، فقال : ليس هذا بشئ ! فقالت : أتُحلِّني وتخرج خائبا ، وأمرت له بأربعة آلاف درهم

وغضبت يوماً على مصعب ، وكانت من أحب الناس إليه ، فشكا ذلك إلى أشعب ، فقال : مالى إن رضيَتْ ؟ قال : حكمك ! قال : عشرة آلاف درهم . قال : هي لك . فانطلق حتى أتى عائشة فقال :

جُعِلت فِداءكِ ! قد علمت حبي لك ، وميلي قديما وحديثا إليك ، من غير مَنالةٍ ولا فائدة ، وهـذه حاجة قد عرضت تقضين بها حق ، وترتهنين بها شكرى .

قالت : وما عَناكَ ؟ قال : قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه . قالت : ويحك ! لايمكننى ذلك .

قال : بأبي أنت فارضي عنه حتى يعطينى . ثم عودى إلى ما عوّدك الله من سوء الخلق ! فضحكت منه ورضيت عن مصعب

وروى صاحب الأغانى أن مُصعبا شكاها إلى ابن أبي فروة كاتبه ، فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذنت لى . قال نعم افعل ماشئت فانها أفضل شيء نلته من الدنيا . فأتاها ليلاً ومعه أسودان ، فاستأذن عليها ، فقالت له : أفى مثل هذه الساعة ؟ قال نعم . فأدخلته ، فقال للأسودين احفرا هاهنا بئرا . فقالت له جاريتها : وما تصنع بالبئر ؟ قال شؤم مولاتك ! أمرنى هـذا الفاجر أن أدفنها حية وهو أسْفَكُ خلق الله لدم حرام . فقالت عائشة : فأنظرني أذهب اليه . قال : هيهات لاسبيل إلى ذلك ! وقال للأسودين : احفرا . فلما رأت الجد منه بكت . ثم قالت : يا ابن أبى فروة ، انك لقاتلى ما منه بد ؟ قال نعم ، وانى لا علم أن الله سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب ، وهو

كافر الغضب ، قالت : وفى أىّ شىء غضبه ؟ قال : فى امتناعك عنه ، وقد ظن انك تبغضينه وتتطامين الى غيره ، فقد جُنّ . فقالت : أنشدك الله إلا عاودته ! قال : انى أخاف أن يقتلنى . فبكت وبكى جواريها . فقال : قد رققت لك . وحلف أنه يغرّر بنفسه ، ثم قال لها : فما أقول ؟ قالت : تضمن عنى أن لا أعود أبداً ! قال فمالى عندك ؟ قالت قيام بحقك ماعشت . قال فأعطينى المواثيق ، فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما وأتى مصعبا فأخبره ، فقال له : استوثق منها بالأيمان ، ففعلت ، وصلحت بعد ذلك لمصعب بفضل ذلك الدرس البديع !

وكان لها مع هذه الشراسة لحظات تصفو فيها وتطيب . فقد صارمت مصعباً مرة وطالت مصارمتها له حتى شق ذلك عليها وعليه ، وكانت لمصعب حرب فخرج إليها ثم عاد وقد ظفر ، فشكت عائشة مصارمته الى مولاة لها فقالت : الآن يصلح أن تخرجى إليه ، فخرجت تمسح التراب عن وجهه . فقال لها مصعب : انى أشفق عليك من رائحة الحديد . فقالت : لهو والله عندى أطيب من ريح المسك الأذفر !

ومن أظرف اللحظات التى طابت فيها نفس تلك الحسناء الظلوم ماحدّث به ابن سلام إذ قال : حجت عائشة بنت طلحة

جاءتها الثريا وأخواتها ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن ، وكان الفريض فيمن جاء . فدخل النسوة عليها فأمرت لهن بكسوة وألطاف كانت قد أعدتها لمن يجيئها ، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة . والفريض بالباب حتى خرج مولياته مع جواريهن إخلع والألطاف ، فقال الفريض : فأين نصيبي من عائشة فقال له : أغفلناك وذهبت عن قلوبنا فقال : ما أنا ببارح من بابه أو آخذ بحظي منها فإنها كريمة بنت كرام . واندفع يغني بشعر جميل

تذكرت ليلى فالفؤاد عميدُ وشطت نواها فالمزار بعيدُ

فقالت : ويلكم ! هذا مولى العبّلات بالباب يذكر بنفسه [1] ، هاتوه ، فدخل . فلما رأته ضحكت وقالت : لم أعلم بمكانك ، ثم دعت له بأشياء أمرت له بها ، ثم قالت له : إن أنت غنيتني صوتاً في نفسي فلك كذا وكذا ، شيء سمته له ذهب عن ابن سلام ، قال فغناها في شعر كُثيِّر

وما زلت من ليلى لَدُنْ طَرَّ شاربي
إلى اليوم أُخفي حبها وأُداجنُ [2]

(١) العبلات : نسبة الى امهم عبلة بنت عبيد (يراجع نسبهم في الجزء العاشر من الاغاني ص ١٠٣، ١٠٤) (٢) أداجن : أداهن

وأحمل فى ليلَى لقوم ضغينةً وتُحملُ فى ليلَى علىَّ الضغائن

فقالت له : ما عدوت ما فى نفسى ، ووصلته فأجزلت

ولهذين البيتين حديث ذكره الشعبي إذ قال : دخلت المسجد فاذا أنا بمصعب بن الزبير على سرير جالس والناس عنده ، فسلمت ثم ذهبت لأنصرف ، فقال لى : ادن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرافقه ، ثم قال : إذا قمتُ فاتبعنى ، فجلس قليلا ثم نهض ، فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعته ، فلما طعن فى الدار التفت إلىَّ فقال : ادخل فدخلت معه ومضى نحو حجرته وتبعته ، فالتفت إلىَّ فقال : ادخل . فدخلت معه فاذا حَجلَة ، وإنها لأول حجلة رأيتها لأمير [٣] فقام ودخل الحجلة ، فسمعت حركة ، فكرهت الجلوس ، ولم يأمرنى بالانصراف ، فاذا جارية قد خرجت فقالت : يا شعبى إن الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلست على وسادة ، ورُفع سجف الحجلة فاذا أنا بمصعب ابن الزبير ، ورفع السجف الآخر فاذا أنا بعائشة بنت طلحة قال : فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما : مصعب وعائشة . فقال مصعب : ياشعبى هل تعرف هذه ؟ فقلت نعم أصلح الله الأمير ، قال : ومن هى ؟ قلت

(١) الحجلة : موضع يزين بالثياب والستور للعروس

سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة . قال : لا . ولكن هذه ليلى الذى يقول فيها الشاعر

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى

وذكر البيتين . ثم قال : إذا شئت فقم . فلما كان العشى رحت وإذا هو جالس على سريره فى المسجد ، فسلمت فلما رآنى قال لى . ادن . فدنوت حتى وضعت يدى على مرفقه . فأصغى إلىّ فقال : هل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟ قلت : لا والله ! قال : أفتدرى لِمَ أدخلناك ؟ قلت : لا ! قال : لتحدث بما رأيت ! ثم التفت إلى عبد الله ابن أبى فروة فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ، وثلاثين ثوباً . قال : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصاب ثياباً ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة !

وهذه النظرة من عائشة بنت طلحة لها موقعها الخاص ، فسنرى كيف يقول الغريض مثل هذا أيضاً حين يحمل اليها كتاب الحارث ابن خالد المخزومى ، وما كان أحرصهم على انتهاب ذلك الوجه المشرق الفصيح !

وكانت لئيمة تصرُّ على العنف ، وتبيِّت العدوان ، يؤيد هذا ما كان بينها وبين زوجها الأول ، إذ مات وهى عنده فلم تفتح فاها عليه

بالرغم من أنه كان ابن خالها ، وأنها تزوجته برأى خالتها عائشة أم المؤمنين فقد كانت أم عائشة بنت طلحة أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وزوجها هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وكان صاحب الفضل عليها إذ لم تلد من أحد من أزواجها سواه : ولدت له عمران وبه كانت تكنى [١] ، وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة من أجواد قريش ، وله يقول الحزين الدؤلى

فان تك يا طلح أعطيتنى عُذَافرةً تستخف العفارا [٢]
فما كان نفعك لى مرةً ولا مرتين ولكن مرارا
أبوك الذى صدق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا
وأمك بيضاء تيمية إذا نسب الناس كانوا نُضارا [٣]

وكان ذلك الزوج المنجب يضارُّها وتضارُّه ، لولا أنه كان أطيب منها قلباً وأكرم نحيزة [٤] ، قيل له طلِّقها فقال :

(١) وبهذه الكنية يخاطبها الحارث بن خالد المخزومى اذ يقول :
يا أم عمران ما زالت وما برحت بنا الصبابة حتى مسنا الشفق
القلب تاق اليكم كى يلاقيكم كما يتوق الى منجاته الغرق
توفيك شيئاً قليلا وهى خائفة كما يمس بظهر الحية الفرق
(٢) العذافرة : العظيمة الشديدة من الابل . والمذكر عذافر ، وهو ايضا الاسد
(٣) تيمية : منسوبة الى تيم ، والمراد هنا تيم بن مرة رهط أبى بكر الصديق ـ والنضار بالضم الجوهر الخالص من التبر (٤) النحيزة : الطبيعة

يقولون طلقها لأصبح ثاوياً مقيماً على لهم أحلام
وإن فراق أهل بيت أحبهم لهم زُلْفةٌ عندى لاحدى العظا

ومن حديث لؤمها أن مصعباً دخل عليها مرة وهى نائمة متصبة ومعه ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون الف دينار فأنبهها ونثر اللؤلؤ حجرها فقالت له : نومتى كانت أحب إلىّ من هذا اللؤلؤ

وتزوجت بعد مصعب عمر بن عبيد الله ، وكان من أشد الناس غيرة فكانت تسرف فى الحديث عن مصعب وعن جماله لتغيظه بذلك دخل عليها يوماً وقد ناله حر شديد وغبار ، فقال لها : انفضى التراب عنى . فأخذت منديلا تنفض به عنه التراب ، ثم قالت له : ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب . فكاد عمر يموت غيظا

وكانت تكون لمن يجىء يحدثها فى رقيق الثياب ، فاذا قالوا : قد جاء الأمير ، ضمّت عليها مطرفها وقطبت ، عناداً ولؤماً ، وكذلك نساء بنى تميم فيما قيل : هُنّ أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن وكانت عند الحسين بن على أم اسحق بنت طلحة فكان يقول : والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى

وكانت حادة الشهوة يتقدم اليها خاطبوها تصريحاً وتلميحاً بما

عندهم فى ذلك من غَناءٍ ، ولها فى هذا الباب أخبار لانرى من الخير أن نُبدىء فيها ونُعيد ، إذ كانت لاتخرج عما هو معروف من شَرَه الطبائع النسائية ، وحرصها على ما فى أصلاب الرجال

وهنا لانرى بداً من الاشارة إلى ما يَبْدَه المولع بتاريخ ذلك العصر من فحولة الرجال ، وأنوثة النساء ، وذلك عندى هو سِرُّ تلك القوة التى استطاع بها العرب أن يسودوا العالم ، وأن يخضعوه لسلطانهم فى زمن قليل ، وفحولة الرجال ظاهرة غالبة فى عهد بنى أمية ، والصدر الأول من عهد بنى العباس ، فلا تكاد ترى رجلا ظاهراً إلا مصحوباً بسيرة مِلؤُها الفتك وقِوَامها الاسراف .

ويكاد يكون عصر بنى أمية هو العصر الذى قَوِى فيه سلطان المرأة ، وذلّ الرجل على بطشه وبأسه لما فى ضعفها من القوة والجبروت ، ويندر أن تجد شاعراً يحس خطر المرأة ويلمسه كما فعل ابن قيس الرقيات إذ يقول فى خطاب عائشة بنت طلحة

عجباً لمثلكِ لايكون لهُ خَرْج العراق ومِنبر المُلْك

*
* *

عقلها

كانت عائشة بنت طلحة حاضرة البديهة رائعة النكتة ، فى مكر وخبث . أصاب منها عمر بن عبيد الله يوماً طِيب نفس فقال : ما مرّ بى مثل يوم أبى فُدَيْك[1] : فقالت له : أُعدد أيامك واذكر أفضلها . فعدّ يوم سجستان ويوم قطرى بفارس ونحو ذلك . فقالت عائشة قد تركت يوماً لم تكن فى أيامك أشجع منك فيه ! قال : وأى يوم ؟ قالت : يوم أرخت عليها وعليك رملة السِّتر[2] ترميها بقبيح الوجه . وروى أنها حجت فوفدت على هشام فقال لها : ما أوفدكِ ؟ قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق ، قال فانى أصل رحمك وأعرف حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال : إن عائشة عندى ، فاسمروا عندى الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمّته ، فقال لها هشام : أما الاول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم ، وردها إلى المدينة

* * *

(١) هو عبدالله بن ثور أحد رءوس الخوارج (٢) كذلك روى الاغانى في الجزء العاشر في أخبار عائشة وعبارته في الجزء الاول (يوم اجتليت رملة وأقدمت على وجهها وأنفها)

مباهرها

وكانت عائشة بنت طلحة فى بسطة من المال يحسب حسابها الأمراء، ونساء الطبقة العالية من قريش. حجت مرة مع سكينة بنت الحسين، وكانت عائشة أحسن آلة وثقلا، فقال حاديها:

عائش يا ذات البغال الستين لازلت ما عشت كذا تحجين

فشقّ ذلك على سكينة ونزل حاديها فقال

عائش هذه ضرةٌ تشكوكِ لولا أبوها ما اهتدى أبوك

فأمرت عائشة حاديها أن يكف، فكف

واستأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك فى الحج، فأذن لها وقال: ارفعى حوائجك واستظهرى فان عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت وجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة! فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة! عائشة! فضغطهم فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها! ثم جاءت مواكب على هذا السنن، ثم أقبلت كوكبة فيها

ثلثمائة راحلة عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى !

ومن دلائل جاهها وعقلها ما ذكروا أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة ، وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتتنزه فيه وتجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة ، فمر بها النميرى الشاعر فسألت عنه فنسب لها . فقالت ائتونى به ، فأتوها به ، فقالت له أنشدنى مما قلت فى زينب ، فامتنع عليها وقال : تلك ابنة عمي وقد صارت عظاماً بالية ، قالت : أقسمت عليك بالله إلا فعلت ، فأنشدها قوله

تضوّع طِيباً بطن نَعمان إذ مشت ... به زينبٌ فى نسوة عطراتِ [1]

فأصبح ما بين الهماء فصاعدا

إلى الجزع جزع الماذى العشرات [2]

له أرجٌ من مُجْمر الهند ساطعٌ ... تَطَلَّع ريّاه من الكفراتِ [3]

أعان الذى فوق السموات عرشه ... موائس بالبطحاء مؤتجرات [4]

(١) هى زينب بنت يوسف أخت الحجاج (٢) الهماء : اسم موضع ـ والعشرات جمع عشر كصرد وهو شجر فيه مرارة تحشى به المخاد كما في القاموس

(٣) المجمر هو الطيب يوضع على الجمر ـ والريا : الرائحة ـ والكفرات : الثياب

(٤) مؤتجرات : طالبات للاجر أو متصدقات

مررن بفخٍّ ثم رُحن عشيةً يلبِّين للرحمن معتجرات (١)

يُخبِّئن أطراف البنان من التقى ويقتلن بالألحاظ معتذرات

تقسَّمن لُبَّى يوم نعمان إنني رأيت فؤادى عادم النظرات

جلون وجوهاً لم تلُحها سمائمٌ حرورٌ ولم يُسعفن بالسَّبَرات (٢)

فقلت يعافيرُ الظباء تناولت يَنَاع غصون الورد مهتصِرات (٣)

ولما رأت ركب النميرى أعرضت وكن من أن يلقينه حذرات (٤)

دعت نسوة شُمَّ العرانين بُذَّلاً نواعم لا شعثاً ولا غبرات (٥)

(١) معتجرات: مختمرات بالمعاجر جمع معجر كمنبر، وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تلتف به ــ فخ: واد بمكة. قال بلال:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بفخ وعندى إذخر وجليل

(٢) السمائم جمع سموم وهى الريح الحارة تكون غالبا بالنهار ــ والسبرات جمع سبرة بالفتح وهى الغداة الباردة (٣) اليعافير جمع يعفور وهو الظبى يشبه لونه التراب

(٤) لما أحضر الحجاج صاحب هذه القصيدة لعقابه على التشبيب بأخته قال له: كم كنتم اذ تقول:

ولما رأت ركب النميرى اعرضت

قال: والله ما كنت الا انا وصاحب لى على حمار هزيل: فضحك الحجاج وعفا عنه

(٥) شم العرانين: مرتفعات الأنوف. وبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين فتكمل قوته، والمراد وصف هؤلاء النسوة بانهن بلغن السن التى ينقلن فيها القلب من حال الى حال

فأدنين حتى جاوز الركب دونها حجاباً من القَسِّى والحبرات [١]
فكدت اشتياقاً نحوها وصبابة تقطّع نفسى إثرها حسرات
فراجعت نفسى والحفيظة بعد ما بلات رداء العصب بالعبرات [٢]

فقالت والله ما قلت إلا جميلا ، ولا ذكرت إلا كرماً وطيباً ، ولا وصفت الا ديناً وتقى ، أعطوه الف درهم . فلما كانت الجمعة الاخرى تعرض لها ، فقالت علىّ به ، فأُحضر فقالت له : أنشدنى من شعرك فى زينب . فقال لها : أو أنشدك من شعر الحارث بن خالد فيك ، فوثب مواليها اليه ، فقالت : دعوه فانه أراد أن يستفيد لبنت عمه [٣] : هات مما قال الحارث فىّ ، فأنشدها قوله

ظعَن الأمير بأحسن الخَلْقِ وغدوا بليلك مطلع الشرق
وتنوء تُثقلها عجيزتها نهْض الضعيف يَنُوء بالوسْق [٤]
ماصبَّحت زوجاً بطلعتها إلا غدا بكواكب الطلق
قرشيّةٌ عبق العبير بها عبَق الدِّهان بجانب الحُقّ
بيضاء من تيم كَلِفتُ بها هذا الجنون وليس بالعشق

فقالت : والله ماذكر إلا جميلا ، ذكر أنى إذا صبحت زوجا

(١) القسى : نوع من اللباس ينسب الى قرية مصرية بين العريش والفرماء تسمى القس
(٢) العصب ضرب من البرود (٣) يستفيد : ينتقم (٤) تنوء : تنهض . نهد ومشقة والوسق : الحمل .

بوجهي غدا بكوا كب الطلق ، وانى غدوت مع أمير تزوجنى إلى الشرق ، أعطوه ألف درهم ، واكسوه حلتين . ولا تعد لاتياتنا بعد هذا يانميرى ! [١]

* * *

أخبارها مع الحارث بن خالد المخزومى

كان الحارث المخزومى — كما قال أبو الفرج الاصبهانى فى الجزء الثالث من أغانيه — أحد شعراء قريش المعدودين الغزِلين . وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة « رضى الله عنه ! » لايتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء . وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها [٢] . ولاّه عبد الملك بن مروان مكة ، وكان ذا قدر وخطر ومنظر فى قريش . وسبب توليه مكة أن قومه بنى مخزوم كانوا كلهم زبيرية إلا هو فانه كان مروانيا ، فلما ولى عبد الملك الخلافة وفد عليه فى دَين كان عليه سنة ٧٥ ، وقيل بل حج عبد الملك فى تلك السنة فلما انصرف

(١) راجع أخبار النميرى في الجزء السادس من الاغانى وص ١٥٨ ج ١ من زهر الآداب

(٢) في زهر الاداب ج ١ ص ٢١٩ ان الحارث بن خالد لم يكن يعتقد شيئاً من ذلك ؛ وانما كان يقول النسيب تظرفا وتخلعا

رحل معه إلى دِمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فانصرف عنه وقال فيه :

صحِبتُك إذ عينى عليها غشاوةٌ ... فلما انجلت قطّعت نفسى ألومُها
وما بى وإن أقصيتنى من ضراعةٍ ... ولا افتقرت نفسى إلى من يضيمها
عطفت عليك النفس حتى كأنما ... بكفيك بؤسى أو عليك نعيمها

وبلغ عبد الملك خبره وأنشد الشعر فأرسل اليه من رَدّ طريقه . فلما دخل عليه قال له : حارِ ! أخبرني عنك ، هل رأيت عليك فى المقام ببابى غضاضة ، أو فى قصدى دناءة ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين قال : فما حملك على ما قلت وفعلت ؟ قال جفوةٌ ظهرت لى ، كنت حقيقاً بغير هذا ! قال : فاختر : فان شئت أعطيتك ألف درهم ، أو قضيت دينك ، أو وليتك مكة سنة . فولاّها اياها ، فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ وكان يهواها فأرسلت اليه : أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافى ! فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها . ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس ، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه . فعزله ، وكتب إليه يؤنبه فيما فعل . فقال : ما أهون والله غضبه إذا رضيت ! والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل

فلما قضت حجها أرسل إليها : يا ابنة عمى ! ألِمّى بنا وعدينا مجلساً نتحدث فيه . فقالت فى غد أفعل ذلك . ثم رحلت من ليلتها ولم تلمّ به ، فقال :

ماضرّكم لو قلتمُ سَدَداً ... إن المطايا عاجلٌ غدُها
ولها علينا نعمةٌ سلفتْ ... لسنا على الأيام نجحدها
لو تمّمت أسباب نعمتها ... تمت بذلك عندنا يدها
إنى وإياها كمفتتن ... بالنار تحرقه ويعبدها (١)

وقد حمل الغريض اليها هذه الأبيات فى كتاب . فلما قرأته قالت : مايدع الحارث باطله ! ثم قالت للغريض : هل أحدثت شيئاً ؟ قال : نعم ، فاسمعى . ثم اندفع يغنى الأبيات ، فقالت عائشة : والله ما قلنا إلا سددا ، ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه . وأتى على الشعر كله ، فاستحسنته عائشة وأمرت له بخمسة آلاف درهم ، وأثواب .

وقالت : زدني ! فغناها فى قول الحارث بن خالد أيضا

زعموا بأن البين بعد غدٍ ... فالقلب مما أحدثوا يَجِفُ
والعين منذ أجدّ بينهمُ ... مثل الجمان دموعها تكِف
ومقالها ودموعها سُجُمٌ ... أقلل حنينك حين تنصرف

(١) لم يوجد هذا البيت في أخبار الحارث بن خالد في الاغانى وقدنقلناه عن زهر الاداب

تشكو ونشكو ما أشتّ بنا كلٌّ بوشك البين معترف[1]

فقالت له عائشة : ياغريض ! بحقي عليك : أهو أمرك أن تغنيني في هذا الشعر ؟

فقال : لا ، وحياتك ياسيدتي ! فأمرت له بخمسة آلاف درهم

ثم قالت له غنّى في شعر غيره . فغناها بقول عمر بن أبي ربيعة

أجمعتْ خُلّتي مع الفجر بينا جلّل الله ذلك الوجه زينا

أجمعت بينها ولم نك منها لذة العيش والشباب قضينا

فتولّت حمُولها واستقلت لم نزل طائلا ولم نقض دينا[2]

ولقد قلت يوم مكة لما أرسلت تقرأ السلام علينا

(١) كذلك نسبت هذه الأبيات إلى الحارث بن خالد في الجزء الثالث من الاغاني ص ١٠٤ ولكنها نسبت الى عمر بن ابي ربيعة بشيء من التغيير في الجزء الاول ص ٢٤٣ وهي كذلك في ديوانه ، ولكنها أطول مما روى الاغاني . ولنذكر بهذه المناسبة أن كثيرا من شعر الحجازيين أضيف الى ابن أبي ربيعة لغلبته عليهم . بل نقل صاحب الاغاني في الجزء السابع في أخبار جميلة أن كثيرا من شعر العرجي نسب الى شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد ، وكان يتأثرهما في مذاهب النسيب . وذكر في الجزء الثالث عشر في أخبار جعفر بن الزبير أن لهذا شعرا كثيرا نحل عمر بن أبي ربيعة بعضه ودخل في شعره ، وان كلمته التي مطلعها

هل في ادكار الحبيب من حرج أم هل لهم الفؤاد من فرج

من الناس من يرويها لعمر بن أبي ربيعة ومنهم من يرويها للاحوص ، ومنهم من يرويها للعرجي . وكل ذلك يدعونا الى الاحتياط عند دراسة الأدب القديم

(٢) الحمول . الهوادج ، كانت فيها نساء أو لم تكن

أنْعَم الله بالرسول الذى أُر سل والمُرسِل الرسالة عَينا

فضحكت ثم قالت : وأنت ياغريض ، فأنعم الله بك عينا ، وأنعم ابن أبى ربيعة عينا ! لقد تلطّفت حتى أديت رسالته ، وان وفاءك له لما يزيدنا رغبةً فيك ، وثقةً بك

وقد كان عمر سأل الغريض أن يغنيها هذا الصوت لأنه قد كان ترك ذكرها لما غضبت بنو تميم من ذلك ، فلم يحب التصريح بها ، وكره اغفال ذكرها ، وقال له عمر : ان أبلغتها هذه الأبيات فى غناء فلك خمسة آلاف درهم ، ففى له بذلك وأمرت له عائشة بخمسة آلاف أخرى

ثم انصرف الغريض من عندها فلقى عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان ، وكانت قد حجت فى تلك السنة فقال لها جواريها : هذا الغريض ! فقالت لهن : علىّ به ! فجئن به إليها . قال الغريض : فلما دخلت سلّمت ، فردت علىّ وسألتنى عن الخبر ، فقصصته عليها ، فقالت : غنّنى بما غنيتها به ، ففعلت ، فلم أرها تهش لذلك . فغنيتها معرضا لها ومذكرا بنفسي فى شعر مُرة بن محكان يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف :

أقول والضيف مخشيٌّ ذمامتُه

على الكريم وحق الضيف قد وجبا[١]

يا ربة البيت قومي غير صاغرةٍ

ضمِّي اليك رحال القوم والقُرُبا[٢]

فى ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب فى ظلمائها الطُّنُبا[٣]

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ حتى يلفّ على خيشومه الذّنبا

فقالت وهى مبتسمة : قد وجب حقك ياغريض ، فغنني ، فغنيتها :

يادهر قد أكثرت فجعتنا بِسَرَاتنا ووقَرْت فى العظْم

وسلَبْتنا ما لست مُخْلِفَهُ يادهرُ ما انصفت فى الحكم

لو كان لى قِرنٌ أُناضلهُ ما طاش عند حفيظةٍ سَهمى

لو كان يعطي النصف قلت لهُ احرزت سهمك فالْهُ عن سهمى

فقالت : نعطيك النصف ، ولا نضيع سهمك عندنا ، ونجزل لك قسمك ، وأمرت لى بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من

(١) الذمامة : العهد . يريد أن عهد الضيف يشعر الرجل بالخشية من التفريط فيه

(٢) القرب : جمع قراب وهو العمد (٣) الاندية : جمع ندى ، ومن معانيه المطر والبلل — والطنب حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد

الألطاف ، وأتيت الحارث بن خالد فأخبرته الخبر ، وقصصت عليه القصة . فأمر لى بمثل ما أمر تالى به جميعاً ، فأتيت ابن ربيعة فأعلمته بما جرى فأمر لى بمثل ذلك ، فما انصرف احد من ذلك الموسم بمثل ما انصرفت به : بنظرة من عائشة ، ونظرة من عاتكة ، وهما من أجمل نساء عالمهما ، وبما أمر تالى به ، وبالمنزلة عند الحارث وابن أبي ربيعة وما أجازانى به جميعاً من المال

وقدم المدينة قادمٌ من مكة ، فدخل على عائشة بنت طلحة فقالت له : من أين أقبل الرجل ؟ قال : من مكة . قالت : فما فعل الأعرابى ؟ فلم يفهم ما أرادت ، فلما عاد إلى مكة دخل على الحارث فقال له : من أين ؟ قال : من المدينة . قال : فهل دخلت على عائشة بنت طلحة ؟ قال : نعم . قال : فماذا سألتك ؟ قال : قالت لى ما فعل الاعرابى ؟ قال الحارث: فعُد اليها ولك هذه الراحلة والحلة ونفقتك لطريقك ، وادفع اليها هذه الرقعة ، وكتب إليها فيها :

من كان يسأل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزلٌ قَمِنُ

إذ نلبس العيش صفواً ما يكدرهُ ... طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

ليت الهوى لم يقربنى إليك ولم

أعرفك إذ كان حظى منكم الحزَن

وكان لعائشة بنت طلحة أمة يقال لها بَشْرة كان يذكرها الحارث فى شعره يكنى بها عن سيدتها ، من ذلك قوله

يا ربع بشرة بالجنان تكلّم ... وأبِنْ لنا خبراً ولا تستعْجم
مالى رأيتك بعد أهلك موحشاً ... خلَقاً كحوض الدّارة المتهدّم
تسقى الضجيع إذا النجوم تغوّرت
طوع الضجيع أنيقة المُتوسَّم

وقوله

لبشرة أسرى الطيف والخَبتُ دونها
وما بيننا من حَزْن أرض وبيدها
وقرّت بها عينى وقد كنت قبلها ... كثيراً بكائى مشفقاً من صدودها
وبشرة خَودٌ مثل تمثال بيعةٍ ... تظلُّ النصارى حولها يوم عيدها

وقوله

يا ربع بشرة إن أضرّ بك البلى ... فلقد عهدتك آهلا معمورا
ان يمس حبلك بعد طول تواصل ... خلقاً ويصبح بيتكم مهجورا
فلقد أرانى والجديد إلى بلى ... زمناً بوصلك قانعاً مسرورا
جَذِلا بما لى عندكم لا أبتغى ... للنفس غيرك خلة وعشيرا

كنت المنى وأعزّ من وطىء الحصى

عندى وكنت بذاك منك جديرا

ولما مات عمر بن عبيدالله عن عائشة بنت طلحة [1] وكانت قبله عند مصعب بن الزبير قيل للحارث بن خالد : ما يمنعك الآن منها ؟ قال لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبي بها كان لشيء من الباطل [2]

وما أدرى كيف رأى ذلك الشاعر الفحل أن النسيب لا يكون للحق إلا إذا خلا من مطامح القلب ، ومطامع النفس : إن هي إلا كلمة رمى بها ليبرّر صدوفه عن تلك الجنة العالية ، حين خبا وجده ، وتقطّعت بضلاله الأسباب

* * *

ما كان بينها وبين عمر

رأى القارىء أن عائشة بنت طلحة كانت رفيقة بابن أبي ربيعة ، وأنها أنست بالتعريض لوفائه له ، وحرصه على تبليغ رسالته ، فلنذكر الآن أن عمر رآها لأول مرة في الطواف ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت

(١) هذه عبارة الاغانى ، وعبارة زهر الاداب : فلما قتل عنها مصعب بن الزبير

(٢) عبارة زهر الاداب : انى لاكره أن يتوهم الناس على أنى كنت معتقدا لما اقول فيها ج ١ ص ٢١٩

لما رآها ، وكانت من أجمل من أظلت سماء الحجاز ، فلما علمت أنها وقعت فى نفسه بعثت اليه بجارية لها وقالت له . اتق الله ولا تقل هُجرا ، فان هذا مقام لابد فيه مما رأيت . فقال للجارية : أقرئيها السلام ، وقولى لها : إن ابن عمك لايقول إلا خيراً . وقال فيها

لعائشة ابنة التيمىّ عندى ... حِمًى فى القلب لايرعى حماها
يذكّرني ابنة التيمىّ ظبىٌ ... يرود بروضة سهل رُباها
فقلت له وكاد يراع قلبي ... فلم أر قط كاليوم اشتباها
سوى حَمش بساقك مستبين ... وأن شواك لم يشبه شواها(١)
وأنك عاطل عارٍ وليست ... بعارية ولا عطل يداها
وأنك غير أفرع وهى تُدلى ... على المتنين أسحم قد كساها(٢)
ولو قعدت ولم تكلف بودٍّ ... سوى ماقد كلفت به كفاها
أظل إذا أكلمها كأنى ... أكلم حيّةً غلبت رُقاها
تبيت إلىّ بعد النوم تسرى ... وقد أمسيت لا أخشي سُراها

وقال فيها أشعاراً كثيرة ، فبلغ ذلك فتيان بنى تميم ، أبلغهم إياه فتى منهم وقال لهم : يا بنى تيم بن مرة ! ليقذفنّ بنو مخزوم بناتنا بالعظائم ، فمشى ولد أبى بكر ، وولد طلحة بن عبيد الله إلى عمر بن

(١) الحمش : دقة الساقين ـ والشوى: الاطراف (٢) الافرع: طويل شعر الرأس

أبي ربيعة فأعلموه بذلك ، وأخبروه بما بلغهم . فقال لهم : والله لا أذكرها فى شعر أبداً ؛ ثم أخذ يكنى عن اسمها فى قصائده ، ويتلطف فى تبليغها ما يريد على أعواد المغنين وبأصوات الغناء ، فمن ذلك قصيدته التى مطلعها

يا أم طلحة إن البين قد أفِدا ... قل الثواء لئن كان الرحيل غدا[1]

أمسى العراقىُّ لا يدرى إذا برزت ... من ذا تطوَّف بالاركان أو سجدا

ولم يزل يتسبب بها أيام الحج ويطوف حولها ويتعرض لها وهى تكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهى ترمى الجمار سافرة فنظر اليها فقالت : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق ! فقال

إنى وأول ما كلفت بحبها ... عجبٌ وهل فى الحب من متعجب

نُعت النساء فقلت لست بمبصر ... شبهاً لها أبداً ولا بمقرِّب

فمكثن حيناً ثم قلن توجهت ... للحج موعدها لقاء الاخشب[2]

(١) افدنقرب (٢) الاخشب مفرد الاخشبين وهما جبلان يضافان تارة الى مكة الى منى وهما واحد أحدهما أبو قبيس والاخر قعيقعان . قال مزاحم العقيلى

خليلى هل من حيلة تعلمانها ... يقرب من ليلى الينا احتيالها

فان بأعلى الاخشبين اراكة ... عدتنى عنها الحرب دان ظلالها

وفى فرعها لو يستطاع جنابها ... جنى يجتنيه المجتنى لو ينالها

ممنعة فى بعض أفنانها العلى ... يروح علينا كل وقت خيالها

أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى ... والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشى بها بغلاتها ... ترمى الجمار عشيةً فى موكب
غراء يُعشى الناظرين بياضها ... حوراء فى غُلَوَاء عيش مُعجب (١)
إن التى من أرضها وسمائها ... جُلبت لحينك ليتها لم تجلب

وروى أن ابن أبى ربيعة لقى عائشة بنت طلحة بمكة وهى تسير على بغلة لها فقال : قفى حتى اسمعك ما قلت فيك ، فقالت أوَقد فعلت يا فاسق ، قال : نعم ! فوقفت فأنشدها

يا ربّة البغلة الشهباء هل لكمُ ... أن ترحمى عمراً لا تُرهقى حَرَجا
قالت بدائك مُت أوعش تعالجهُ ... فما نرى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حمّلتنا غيظا نعالجهُ ... فان تُقِدْنا فقد عنّيتنا رِحجا (٤)
حتى لو أستطيع مما قد فعلت بنا ... أكلت لحمك من غيظ وما نضجا
فقلت لا والذى حج الحجيج له ... ما مسّ حبك فى قلبى ولا نهجا (٥)
ولا رأى القلب من شىء يُسَرُّ به ... مذ بان منزلكم منا ولا ثلجا
ضننت بنائلها عنه فقد تركت ... فى غير ذنب أبا الخطاب مُختلجا

ويظهر من هذا الشعر أن الاخشبين غير التى بمكة ، كما قد يتوهم لما ترى من منازل العرب التى يحلونها بأسمائهم ، وليس الاخشبان كذلك وهما أيضاً موضع واحد إذ لا تنبت الارانج فى موضعين (١) غلواء العيش نضره وأرغده
(٢) تقيدنا : تعاقبنا من القود وهو القصاص (٥) مح : بلى

فلم تزل تداريه وترفق به خوفاً من أن يتعرض لها حتى قضت حجها وانصرفت إلى المدينة ، فقال فى ذلك :

إن من تهوى مع الفجر ظعنْ ... للهوى والقلب متباعُ الوطنْ
بانت الشمس وكانت كلما ... ذكرت للقلب عاودتُ الدَّدن (١)
نظرت عينى إليها نظرةً ... مَهبِطَ الحُجاج من بطن يَمَنْ
موهناً تمشى بها بغلتها ... فى عثانينَ من الحج ثُكَن (٢)
قلت قد صدّت فماذا عندكم ... حسنَ الناس لقلبٍ مرتهن
ولئن أمست نواها غربةً ... لا تواتينى وليست من وطن (٣)
فلقدماً قرّبتنى نظرتى ... لعناءٍ آخرَ الدهر مُعَنّ
ثم قالت : بل لِمن أبغضتكم ... شقوة العيش وتكليف الحزن
سوف آتى زائراً أرضكمُ ... بيقين فاعلميه غير ظن
فأجابت : هذه أمنيةٌ ... ليت أنّا نشتريها بثمن

(١) الددن : اللهو واللعب والمراد به هنا تشوق القلب لاحلام الشباب (٢) العثانين هنا الزمر والجماعات التى تتقدم الركب تشبيها لها بعثانين المطر والريح ، والمفرد عثنون . والثكن جمع ثكنة وهى الجماعة ، وهى كذلك السرب من الحمام (٣) النوى الغربة بفتح النون المعجمة هى البعيدة

وقال فيها أيضاً هذه القصيدة

مَنْ لقلبٍ أمسى رهيناً مُعنّى مستكيناً قد شفّه ما أجنّا
إثر شخص نفسى فدت ذاك شخصاً
نازح الدار بالمدينة عنّـا
أن أراه والله يعلم يوماً منتهى رغبتى وما أتمنى
ليت حظى كطرفة العين منها وكثيرٌ منها القليل المهنّا
أو حديث على خلاءٍ يُسلّى ما أجنّ الضمير منها ومنا
أترى نعمةً نراها علينا منك يوماً قبل الممات ومَنّا
خبّرينا بما كتبت إلينا أهو الحق أم تهزّأتِ منّا
ما نرى راكباً يخبّر عنكم أو يريد الحجاز إلاّ حزِنّا
ثم ما نمت بعدكم من منام منذُ فارقت أرضكم مطمئنا
ثم ما تُذكَرين للقلب إلاّ زِيدَ شوقاً إليكمُ واستُجِنّا

ويرجح أنه قال فيها القطعة الآتية :

يا أبا الحارث قلبى هائمٌ فأتمر أمر رشيد مؤتمن
عُلّق القلب غزالا شادناً يا لقومٍ لغزال قد شدن[1]
أطلُبَنْ لى صاح وصلا عندها إن خير الوصل ما ليس يمنّ

(١) الشادن هو الظبى الذى شدن أى قوى واستغنى عن أمه

إن حبي آل ليلى قاتلي ظهر الحب بجسمي وبطن
ليس حبٌّ فوق ما أحببته غير أن أقتل نفسي أو أُجن
جعلت للقلب مني حبها شجنًا زاد على كل شجن
فإذا ما شحطت هام بها وإذا راعت إلى الدار سكن

ولنلاحظ أن شعر ابن أبي ربيعة في عائشة بنت طلحة لا يُستطاع تعيينه عند الرجوع إلى ديوانه، فقد رأينا أنه أُرغم على السكوت عنها، وأنه اكتفى بالتلميح في أكثر ما أوحت اليه من الشعر البليغ

وعند ما نلاحظ ذلك يصحُّ لدينا أن كثيراً من الأسماء التي وردت في شعره لم يكن إلا أداة لستر حبه وصرف الناس عن الكيد لمن يهوى من كرائم الملاح[1]

(١) راجع ما تفرق من أخبار الحارث بن خالد المخزومي وأخبار عائشة بنت طلحة وأخبار عمر بن أبي ربيعة في الاغاني، وما ذكر عن هؤلاء في الجزء الاول من زهر الآداب